مجلة الإحياء، المجلد: 23، العدد: 32، جانفي 2023، ص - ص: 29– 46
الترقيم الدولي: 4350-1112 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2406-2588

دواعي تفسير القرآن الكريم ومبررات تجديده بين الانضباط والانفراط

The Reasons for the Interpretation of the Holy Qur'an and the Justifications for Its Renewal between Discipline and Excess

د/ يونس عمر ملال
جامعة أم القرى – مكة المكرمة - السعودية
younes.noun@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/09/15 تاريخ القبول: 2022/11/15

الملخص:
يحاول العرض العلمي في هذا البحث أن يبين أن كون القرآن مبين لا يمنع من وجود التفسير، ولا يعدم الحاجة إليه، وأن الحاجة إلى المفسرين هي حاجة حقيقية أساسية غير متكلفة، وأن المفسرين هم علماء استجمعوا المعايير العلمية وساروا على هدي النبي وأصحابه، وأن التفسير يتجدد، وكذلك علوم القرآن، كما كان يحصل باستمرار في تاريخ العلوم لدى المسلمين منذ نشأة التفسير، وأن التجديد في التفسير وعلوم القرآن جائز شرعا، ممكن عقلا، واقع تاريخا، سواء كان تفسيرا بالرأي أو بالمأثور، شريطة أن يكون ذلك التجديد منضبطا بقواعد علم التفسير وأصوله المعرفية، وأن يكون من أهله الذين تمكنوا في هذا الميدان، وشهدت لهم الأمة بذلك، لا أن يكون التجديد ذريعة لتبديد معاني القرآن الكريم، والافتراء على الله، وتبرير المسالك الضالة التي ارتضاها قوم لأنفسهم مستعيرينها من الشرق أو من الغرب، بعد أن انهزموا نفسا وفكرا وثقافة، فأرادوا جر جميع الأمة لهذه الانهزامية الموحلة، ومن ثمة فلا حجة لمن منع التفسير من الحداثيين، إما بداعي البيان والوضوح الذاتي في القرآن الكريم، أو بدعوى الخروج عن سلطة المفسرين المحتكرين للتفسير، فضلا عن أن الحداثيين يدل بأنهم، بمنعهم التفسير القائم على العلم، وباقتراحهم لبديلهم الذي هو القراءة المعاصرة، وقعوا في تفاسر جاهلة لا ضابط لها سوى التشهي والهوى الذي لا حد له.
الكلمات المفتاحية: تفسير؛ تجديد؛ حداثة؛ علوم القرآن؛ أصول التفسير.

Summary:

The scientific presentation in this research attempts to show that the fact that the Qur'an is clear does not prevent the existence of the interpretation, and does not lack the need for it, and that the need for the interpreters is a real, basic and not far-fetched need, and that the interpreters are scholars who gathered scientific standards and followed the guidance of the Prophet and his companions, and that interpretation is renewed, and the same applies to the sciences of the Qur'an, as it has been constantly happening in the history of sciences among Muslims since the inception of interpretation. And that renewal in interpretation and the sciences of the Qur'an is legally permissible, reasonably possible, and historically true, whether it is an interpretation by opinion or by a gnomic, provided that this renewal is disciplined by the rules of exegesis and its cognitive foundations and that it is one of its people, who have succeeded in this field and the nation testified to them that, Not for the renewal to be a pretext for dispelling the meanings of the Noble Qur'an, slandering God, and justifying the misguided paths that some people accepted for themselves, borrowing them from the East or the West,

after they had been defeated in soul, thought and culture, so they wanted to drag the entire nation to this muddy defeatism Hence, there is no argument for the modernists who prevented interpretation either for reasons of self-explanation and self-clearance in the Holy Qur'an, or for claiming to depart from the authority of the exegetes who monopolize interpretation, in addition to their behavior that, by preventing science-based interpretation, and proposing their alternative, which is contemporary reading, they fell into an ignorant interpretation that have no control for it but whims and passion that has no limit.
Keywords: interpretation; renewal; novelty; Quran Sciences; The origins of interpretation.

توطئة:

تدور إشكالية هذه الدراسة على التساؤلات الأساسية الآتية: إذا كان القرآن الكريم كتابا عربيا مبينا، فهل يحتاج الناس بعد ذلك إلى تفسير ومفسرين؟ وما دواعي وجود التفسير ومبررات وجود المفسرين؟ وهل هم علماء يعينون المؤمنين على فهم كتاب الله، متأسين برسول الله وأصحابه، وتابعيهم وأفاضل هذه الأمة، أم - هم كما يدعي أكثر الحداثيين - قوم احتكروا الفهم والدين وحجروا على الناس في فهم كتاب فصيح مبين لا يحتاج إلى التفسير أصلا، أوليس مثل هذا الادعاء جهل محض، لا يعرف صاحبه شيئا عن علم التفسير وأصوله ومناهج المفسرين؟ وهو ادعاء يفتح الباب لكل غاد ورائح أن يتهجم على كتاب الله بغير علم فيضيع الدين كله؟

وهل التفسير علم جامد؟ أم هو علم يقبل النظر والاجتهاد والتجديد في أصوله وفروعه؟ وبالتالي فليس فيه حجر على فهم الناس، بل هو انضباط في الفهم يخضع لقواعد العلم.

ونحن نفترض أن التفسير علم كغيره من العلوم الإسلامية، مر بمراحل الازدهار والاتساع ثم الركود ثم الانبعاث والتجديد، ونعتقد أن التجديد ممكن وواقع ومشروع في فروع هذا العلم، وفي بعض أصوله وعلومه التي يستقي منها ويتغذى بها، لكن ليس تجديدا منفلتا يكاد يأتي على الدين من القواعد.

هذا ما سيتناوله البحث من خلال بيان دواعي التفسير والحاجة إليه، ومنحنى تطوره من الازدهار إلى التراجع، ثم إعادة تجدده ومشروعية ذلك التجدد.

لئن كان تفسير القرآن علما قد مر كغيره من العلوم بمراحل ازدهار ومراحل انتكاس فإن قوما ظلوا يشوشون على التفسير فتارة يقحمون أنفسهم ضمن دائرة المفسرين وينعتون أنفسهم بالمجددين فيه؟ وتارة أخرى يتهجمون على المفسرين بإنكار الحاجة إلى التفسير أصلا على اعتبار أن القرآن الكريم مبين فصيح عربي لا داعي معه لوجود مفسر!؟... ويتهمون المفسرين بأنهم قد حجروا على الناس في فهمهم لكتاب الله وألزموهم بما لم يلزمهم به الله ورسوله....

وفي هذه المقالة العلمية بعون الله، نرد هذه الفرية التي استشكلها بعضهم، مدافعين عن كتاب الله، وعن جهود علماء القرآن، ومبينين في أربعة مطالب دواعي التفسير والحاجة إليه، ومبينين كيف نما وكيف كبا وتراجع وكيف عاد فتجدد ونفض عن نفسه غبار المقلدين وتحجرهم من جهة، وادعاءات الحداثيين وتحللهم من جهة ثانية. من هنا جاءت هذه المقالة في المطالب الآتية:

المطلب الأول: دواعي قيام علم التفسير وحاجتنا إليه.
المطلب الثاني: علم التفسير في مرحلة التراجع.
المطلب الثالث: واقع علم التفسير بين التجديد والتبديد.
المطلب الرابع: مشروعية التجديد في التفسير وعلوم القرآن.

المطلب الأول: دواعي نشأة علم التفسير وحاجتنا إليه

أولا: ما تفسير القرآن الكريم؟

يأنف كثير من الحداثيين من مصطلح التفسير والتأويل، ويرون بأن التفسير لا يتوافق مع طبيعة الخطاب القرآني، فالقرآن نص مفتوح على المعاني الآمتناهية بحكم تعاليه، في حين أن المفسرين يحصرون المعاني في عدد محدود يعبر عن فكرهم وبيئتهم لا عن القرآن وحقيقته، ويستعيضون بمصطلح التفسير مصطلح القراءة أو القراءة المعاصرة، فبتعدد القراءات بزعمهم يكون القرآن غنيا بالمعاني غير المتناهية وفي مثل هذا الزعم يقول عبد المجيد الشرفي ومن وافقه من أمثال كمال عمران والباجي القمرتي ووداد القاضي: " لئن آثرنا تجاوز مصطلحي التفسير والتأويل إلى استعمال مصطلح القراءة، فلأن التعامل مع (النص التأسيسي) لا يمكن أن يطرح في نظرنا على صعيد ثنائية الظاهر والباطن فالنص يتضمن ويحتمل نظريا بحكم أزليته، عددا لا متناهيا من المعاني، فسمة الإطلاق فيه تجعله يستوعب قراءات..."[1].

ولم يشرح لنا الشرفي وأتباعه لماذا تتعدد القراءات ولا تتعدد التفاسير؟ مع ما يشتم من رائحة التوجه الباطني الذي يراد له أن يعوض بالقراءة... ولأن مصطلح التفسير مصطلح راسخ منضبط عند أهل الاختصاص في حين أن مصطلح القراءة هلامي يعني كل شيء وقد لا يعني شيئا مطلقا، فقد تكون القراءة المعاصرة لبرالية أو يسارية أو أيا كانت، الأمر الذي يجعل أمثال الشرفي وعلي حرب وغيرهما يغامرون بمحاولة هدم علم قائم مكتمل الأركان دون أن يكون عندهم بديل مقنع، بل ينقلون الناس من الرواية الثابتة والاجتهاد العلمي إلى التخرص والتخمين الشبيه بما عند الباطنية، فيكونون بذلك مثل ما قيل رمتني بدائها وانسلت، ذلك أنهم يتهمون المفسرين بنقل الناس من خطاب الله إلى أفهامهم وخبراتهم المحدودة، وكأن المفسر يقول في كتاب الله بمحض الرأي والهوى، الأمر الذي يجعلنا نتساءل هل يعرف هؤلاء معنى التفسير وأصوله وطبيعة عمل المفسرين؟ على أن فريقا منهم يرى أن القرآن الكريم يحتمل القراءة وإعادة القراءة لكنه لا يحتمل التفسير لأنه فصيح بيِّن بنفسه!! الأمر الذي حدا بنا إلى التعريج ابتداء على مصطلح التفسير وإيضاح موجبات الحاجة إليه ودواعيها.

التفسير عند علماء القرآن إذا اقترن بكلام الله فهو يعني إيضاح معانيه وشرح مراد الله وقصده بلفظ القرآن وآيه وبيان ما أشكل فهمه على عوام الناس أو ما أغلق من المراد بلفظه من المعاني على قدر طاقة المفسر وعلمه وموهبته وذكائه وتقواه وعلى وفق أصول التفسير وقواعده من خبر ثابت أو علم باللغة وقواعد الدين. فهو شرح وبيان للأحكام والحكم.

والعرف العام في الاستعمال أن القرآن يختص بلفظة التفسير بينما تختص السنة النبوية بلفظ الشرح، مع أن أصل المعنى اللغوي واحد كما قال ابن فارس (ت 369هـ): "معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء ومرجعها إلى ثلاثة وهي: المعنى والتفسير والتأويل، وهي وإن اختلفت فإن المقاصد بها متقاربة"[2]، فنقول اصطلاحا تفسير القرآن ولا نقول شرحه، ونقول شرح السنة ولا نقول تفسيرها، فللقرآن مفسرين وللسنة شراحا.

وللعلماء في بيان معنى تفسير القرآن تعاريف كثيرة، منها ما هو عند المتقدمين ومنها ما هو عند المتأخرين، فعند المتقدمين مثلا:

- ما ذكره أبو حيان الأندلسي (745هـ) في البحر المحيط بأنه: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك[3].

- وما ذكره الإمام الزكشي (ت 794هـ) في البرهان تعريفه التفسير بأنه: "علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"[4].
- وكذا ما ذكره الإمام السيوطي (ت 911هـ) في أن تفسير القرآن هو: "علم نزول الآيات، وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيبه مكّيها ومدنيّها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك[5].

وما يلاحظ على تعريفي الإمامين: جلال الدين السيوطي وأبو حيان الأندلسي، التفاتهما للإطناب والتوسع والشرح، وكإدخالهما أحكام التلاوة في التفسير كما في قول أبي حيان: "علم يبحث فيه عن النطق بألفاظ القرآن"، وهو ليس من معنى التفسير، فالنطق بألفاظ القرآن نطقا سليم المخارج شيء، وبيان معاني القرآن شيء آخر، وإن كان بينهما نوع تلازم. وكإمدادات التفسير التي تدخل ضمن علوم القرآن، والتي تعين المفسر في الوصول إلى المعنى الصحيح وليست من التفسير كأسباب النزول والعلم بالمكي والمدني والمطلق والمقيد وغير ذلك مما يحتاج إليه المفسرون، وأظهرها في تقديري: تعريف الإمام الزركشي - رحمهم الله جميعا-.

على أن للعلماء المحدثين تعاريف أخرى لتفسير القرآن قد تكون أحق به لما تميزت به من الإحكام والضبط والاختصار مما يحقق الجمع والمنع في هذه التعاريف.

وأول هذه التعاريف ما نقله الدكتور صلاح الخالدي منسوبا إلى الشيخ محمد علي سلامة (ت1361هـ) في كتابه منهج الفرقان في علوم القرآن إذ قال: "علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية"[6]، وأورده الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون" نسبة لبعض الباحثين، وهو التعريف ذاته الذي ذكره الشيخ عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان دون نسبة مع اختلاف يسير في اللفظ[7].

وقد مال بعض أهل العلم إلى هذا التعريف لاسيما محترزه "بقدر الطاقة البشرية"، وهذا القيد ينبغي أن يكون ملحوظا في كافة التعاريف وإن لم يكن ملفوظا فيها، وخصوصا بالنسبة لكلام الله عز وجل، فبديهي ألا يتساوى القرآن والتفسير، كما من البداهة ألا تتساوى التفاسير فيما بينها لتفاوت أصحابها في درجتي العلم والتوفيق

وثانيها ما أورده الشيخ عبد العظيم الزرقاني أيضا (ت1367هـ) إذ قال: "وعرفوا علم التفسير أيضا بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز، من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام"[8].

والتعريف الثالث الذي نثبته هو ما أورده الشيخ العلامة الطاهر بن عاشور (ت1393هـ) في مقدمة تفسيره بقوله: "اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها، باختصار أو توسع"[9].

ويجدر التنويه أيضا بدقة تعريف الشيخ الطاهر بن عاشور لتمحيضه علم التفسير "لبيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها" دون سواه، وهو ما عبر عنه التعريف الأول بـ: "أحوال القرآن من حيث دلالته على مراد الله كما شرح الشيخ ابن عاشور محترز تعريفه بقوله: "... وبهذا يتمايز تفسير القرآن عن علم القراءات، فالعلوم تتمايز بتمايز الموضوعات وحيثيات الموضوعات"[10].

وإذا كان هذا هو معنى تفسير القرآن الكريم الذي لا نعرف سواه والذي هو اجتهاد علمي من أهل العلم وليس مجرد خواطر نفوس وتخمينات عقول، بل إن الشيخ الطاهر عاشور لم يكتف بالتصريح بأنه

العلم الباحث عن أحوال القرآن الكريم، وإنما صرح كذلك بأنه أول العلوم الإسلامية نشوءا، ويعرف كل عاقل أن لكل علم أصوله وقواعده، وما كان يخضع للأصول والمعايير العلمية لا يكون فيه حجر ولا افتئات.

غير أن القوم قالوا كذلك ما دام القرآن مبين فلا يحتاج إلى تفسير؟ فما الداعي إلى التفسير والمفسرين؟ أوليس القرآن عربيا مبينا يفهمه كل من يفهم الخطاب العربي؟ من هنا وجب ذكر دواعي التفسير ومبرراته.

ثانيا: ما الحاجة إلى تفسير القرآن الكريم؟

ما الداعي إلى تفسير القرآن الكريم وما مبرراته؟... بقدر ما يبدو هذا السؤال مستغربا عند الحداثيين فإنه يبدو لنا بديهيا، وإذا كان استغرابهم حاجة القرآن إلى التفسير ينبع من أن القرآن الكريم هو أوضح بيان وقد نزل بأقوم لسان، وأنه نزل تبيانا لكل شيء ومن ثمة فكيف يكون هو نفسه مفتقرا إلى من يوضح معانيه ومن يجلي مقاصده؟ وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89)، وبقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (الشعراء: 193)، والناس عادة يحتاجون إلى توضيح الأمور الغامضة، أما توضيح الواضحات فهو من الفاضحات كما زعموا.

بل إن الله سبحانه وتعالى عاب على المشركين عدم تدبرهم للقرآن وقد أنزله بلغتهم التي يفهمونها وخاطبهم ببيانهم الذي يبرعون فيه ولو أنزله سبحانه بلغة لا يفهمونها لاحتجّوا بعدم الفهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (طه: 113)، وقال جلّ جلاله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: 44).

وإن تعجب لهؤلاء الحداثيين فعجب تكوينهم الفلسفي الذي يستشكل كل شيء حتى يجعل من الواضحات مشكلات لكنهم إذا جاؤوا إلى موضوع التفسير جعلوا من البديهيات وهي حاجة القرآن إلى تفسير من المستغربات.

ومحل البداهة عندنا، أن هذه الآيات وإن كان فيها، كما يرى أحد الباحثين بحق ردٌ على "من ادعى من الباطنية بأن الله سبحانه قد خاطب خلقه بالألغاز وبما لا يفهمون أو يعقلون، وبأن ظاهر القرآن بخلاف باطنه، لأنه يكون قد نسب الظلم لله والعياذ بالله من ذلك، وقد خالف بقوله هذا قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89)، فكيف يكون الكتاب تبيانا لكل شيء وهو غامض لا يفهمه إلا نفر قليل من الناس؟ وكيف يهدي به الله عباده وقد حصر فهم القرآن على نفر قليل؟"[11].

إذا كان هذا صحيحا في رد دعاوى الباطنية فليس صحيحا في أن في الآيات ما يشير إلى الاستغناء عن الحاجة إلى التفسير، ذلك أن الآيات تصرح بأن القرآن هدى وشفاء، فهل كل الناس يهتدون ويستشفون من غير حاجة إلى هاد أو طبيب؟ وإذا كان الله يعيب على المشركين – وفيهم أئمة العربية – أن القرآن لم يحدث لهم ذكرا، فأين أئمة العربية اليوم؟ بل أين الذين يفهمون - فهم العرب الأقحاح - للعربية فضلا عن أن يكونوا أئمة فيها؟ وإذا تسنى هذا لقلة نادرة فهل يتسنى لكل الناس؟

على أن الواقع العملي والتاريخي ينيؤنا أنه لو استغنى أحد عن التفسير لاستغنى عنه صحابة رسول الله وقد احتاجوا في مواضع عدة إلى تفسير رسول الله ﷺ، والحاجة إلى التفسير لا تنفي أن في القرآن مواضع وموضوعات فيها إفادة عامة لكل من له حظ في معرفة لغة العرب وقرأ القرآن ورتله بصدق، كما فيه ما يحتاج إلى بيان وإيضاح، فما دواعي قيام التفسير ومبرراته وأدلة حاجتنا إليه على التفصيل؟

إن من أدلة حاجتنا إلي التفسير، ومن مبررات قيامه المتنوعة التي يعرفها أهل الاختصاص والتي اقتضتها طبيعة هذا الدين من نواح عدة ما يأتي:

1- من وظيفة رسول الله تفسير القرآن الكريم: فالنبي عليه الصلاة والسلام هو أول المفسرين، إذ حينما أنزل الله تعالى الوحي على خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، أمره بتبليغه للناس فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: 67)، كما عهد إليه بالتبيين للناس ليتدبروا ما أنزل إليهم ويهتدوا إلى سبيل الله قولا وعملا، عقيدة وشريعة كما قال سبحانه: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 44)، وعهد الله إلى رسوله أن يعلم المؤمنين الكتاب والحكمة، ولو كان القرآن غنيا عن التفسير لاختلفت طبيعة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ووظيفته، فصارت رسالة تبليغ دون تبيين وتعليم للكتاب.

والواقع العملي يدلنا على أن رسول الله ﷺ قام بما عهد به إليه ربه، فبلغ القرآن كما أنزل إليه، ثم بيّن لأصحابه أحكامه وفصّلها في السنة المطهرة وفي السيرة العطرة، فكل كلامه ﷺ وكل حياته كانت ترجمة عملية للقرآن الكريم، وقد قال الإمام الشافعي "جميع السنة شرح للقرآن"[12]، حتى ذهب بعض العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية (ت728هـ) ونجم الدين الطوفي (ت716هـ) إلى أن رسول الله فسر كل القرآن، وخالفهم جمهور العلماء لا في مبدأ تفسير النبي للقرآن، فذلك محل اتفاق بينهم ولكن الاختلاف دار حول مقدار تفسيره عليه الصلاة والسلام للقرآن أهو أقله أم أكثره، ثم إن أصحابه رضي الله عنهم نقلوا ما تلقوه وسمعوه وشاهدوه واجتهدوا على قدر حاجتهم ولم يتوسعوا في ذلك حتى عدّ التفسير في بداياته جزءًا من المرويات، واشتهر من أصحاب رسول الله في التفسير ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وغيرهم ، فالمفسر إذن لا يبتدع شيئا من عنده بل يتأسى برسول الله ﷺ وصحابته الكرام من بعده في بيان حقائق القرآن الكريم وأحكامه وهداياته، وما أحوج الناس إلى من يفهمهم كتاب الله ليحسنوا تقويم اعوجاجهم به باطنا وظاهرا، قولا وعملا، وهذا ما لا يمكن أن يقع بعيدا عن البيان النبوي لما في القرآن الكريم من الإجمال الذي فصلته السنة والإبهام الذي فسرته.

وكما تحتاج الدساتير إلى قوانين تفصلها، يحتاج مجمل القرآن إلى تفصيل السنة، حتى لا يفصل الناس على هواهم فعن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: "إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله[13]، وعن عمران ابن حصين أنهم "كانوا يتذاكرون الحديث فقال رجل دعونا من هذا وجيئونا بكتاب الله فقال عمر إنك أحمق أتجد في كتاب الله الصلاة مفسرة أتجد في كتاب الله الصيام مفسرا؟ إن القرآن أحكم ذلك والسنة تفسره"[14]، فسيدنا عمر ينبه إلى أن ضياع السنة ضياع للقرآن لأنها هي ما يفسره على الوجه الصحيح، وهذا لا ينطبق على كل القرآن لكنه ينطبق على كثير من آياته، فهو كاف لتبرير مبدأ الحاجة إلى التفسير وتقريره بكل وضوح.

2- الخطاب القرآني نفسه: فهو يدعو إلى حسن فهمه وتدبره: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: 29)، وينكر على الذين منعوا أفئدتهم من التدبر فيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: 24)، وقد استنبط شيخ الإسلام ابن تيمية وجوب تعلم التفسير من هاتين الآيتين فقال: "وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك أن يدّبر الناس آياته ويتعظوا بما فيها، والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك فاتت الحكمة من إنزال القرآن وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها، ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة في الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم وعدم وصول الخير إليها"[15]. بل هذه سنة الله مع كل ما أنزل من وحي، فقد شبه الأمّة التي آتاها التوراة ولم تحملها أي لم تتدبر معانيها وتعمل بحدودها كالحمار يحمل أسفارا[16].

ومن طبيعة القرآن الكريم كذلك اشتماله على أصول المسائل في الاعتقاد والشريعة والأخلاق "وأرشد إلى أقوم المناهج في الفكر والعمل لكنه لم يتضمن تفصيلات في هذه الأمور وترك ذلك للسنة النبوية حينا، ولعقول المسلمين أحيانا، ولا غرو أن تحتاج كثير من ألفاظ القرآن وجمله إلى البيان والتفسير، ولاسيما مع استخدامه كثيرا لأسلوب الإيجاز الذي يجمع المعاني الجمة في الألفاظ القليلة، والإيجاز من مظاهر الإعجاز لكن بلاغة القرآن تتسامى على كثير من العقول القاصرة، فما الحيلة والقرآن يدعو الناس إلى الاهتداء بهداه والعمل على ضوئه ليخرجوا من الظلمات إلى النور: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: 9)، وكيف يعمل الصالحات بالقرآن من لم يفهم القرآن وكيف يهتدي به على الوجه الصحيح من لم يتبين معانيه كما أرادها الله تعالى؟ يقول الإمام الطبري (ت310هـ) في مقدمة تفسيره "محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان والكلام! إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره. أما قبل ذلك فمستحيل أن يتدبره وهو بمعناه جاهل، كما محال أن يقال لبعض الأمم الذين لا يعرفون كلام العرب ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة... ذات أمثال ومواعظ وحكم: اعتبر بما فيها من الأمثال، ادّكر بما فيها من المواعظ، إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما تنبه عليه ما فيها من الحكم"[17]. وروى الإمام الطبري كذلك عن سعيد بن جبير قوله: "من قرأ القرآن، ثم لم يفسره، كان كالأعمى..."[18].

3- طبيعة اللسان العربي: لغة القرآن ولسانه الذي نزل به هو اللسان العربي: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: 2)، واللسان العربي بطبيعته متنوع الأساليب والدلالات ، يحوي المجاز والحقيقة، ويشمل الخاص والعام والمطلق والمقيد والمنطوق والمفهوم ويضم الكنايات والاستعارات والتشبيهات والأمثال وفيه الحذف والاختصار وكل ذلك موجود في القرآن، وكله منضبط بقواعده المعروفة في علوم اللغة - كعلوم الإعراب والبيان والمعاني والدلالة وغيرها – وفي كتب أصول الفقه... وهذه الضوابط تخفى على كثير من الناس بل إن بعض مسائلها تخفى على المتخصصين فضلا عن غيرهم، وإن كثيرا من الحداثيين الذين يجادلون في الحاجة لتفسير القرآن الكريم لو امتحنوا في مسائلها لسقطوا.

بل إن من معاني بعض الألفاظ ما كان يخفى حتى على كبار الصحابة وهم الذين كانوا عربا على السليقة وقد يتوقف على بعض تلك الألفاظ فهم معنى الآية كما أورد الإمام الشاطبي عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه سأل وهو على المنبر عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: 47) فأجابه أعرابي من هذيل: التخوف عندنا التنقص، وأنشده بيتا من الشعر فقال عمر: "أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم"[19].

4- طبيعة الإنسان المعني بالقرآن: فالذين وجه القرآن الكريم إليهم خطابه، هم الناس جميعا كلهم معنيون بتوجيه خطاب القرآن الكريم إليهم، طائعين وعاصين، مؤمنين أو كافرين، أو حتى منافقين!.. قال تعالى في خطاب الناس جميعا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)، ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ (الأعراف: 27)، وفي خطاب المؤمنين قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً....﴾ (التحريم: 8)، وفي خطاب الذين كفروا قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحريم: 7)، وكتاب وجه خطابه للإنسانية بهذا الشمول حري بأن يضبط معناه، إذ في الناس العالم والجاهل وفيهم النابه والغافل والحاكم والمحكوم، والعربي والأعجمي كما فيهم الصالح والطالح، لذا تختلف مقاصد الناس في التصدي لفهم كتاب الله كما تختلف قدراتهم، ففي الإدراك والقدرة على الفهم، منهم من يغوص مع حقائق الأشياء إلى الأعماق ومنهم من يبقى طافيا على السطح لا يلحظ إلا مباني الأمور وأشكالها وتغيب عنه المقاصد والمرامي، فهذا عدي بن حاتم الطائي وهو من أصحاب رسول الله لما سمع قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: 187)، فهم الخيط الأبيض والخيط الأسود على الحقيقة لا على المجاز، وراح يضع خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود تحت وساده ليعرف بظهور لونيهما لعينيه وقت الفجر حتى بين له النبي أن المراد سواد الليل وبياض النهار، وقال له: "إن وسادك إذا لعريض! أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك"[20]، بل إن في البخاري من رواية سهل بن سعد أن عديا لم يكن وحده وإنما فعل ذلك عدد من الرجال كانوا يربطون الخيوط في أرجلهم ولم يزل أحدهم يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، وتشير الرواية إلى أن ذلك كان قبل نزول عبارة ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾[21]، وفي رواية البخاري إشكال لأن نزول من الفجر وحدها لا يساعده إحكام سياق النص، كما أن في ذلك تأخير للبيان عن وقت الحاجة كما لاحظه بعض الباحثين[22].

وفهم بعض الصحابة أيضا من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: 82)، أن المراد عموم ظلم الإنسان نفسه بالمعصية، فشق ذلك على الصحابة لأن الوقوع في الخطأ طبيعة بشرية لا سبيل للانفكاك منها، فقالوا أينا لا يظلم نفسه؟ فبين لهم الرسول ﷺ أن المراد بالظلم في هذه الآية هو الشرك، مستدلا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13).

وفي خلافة سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه، صعد المنبر وخطب في الناس قائلا: "أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على غير وجهها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: 105)، وإني سمعت رسول ﷺ يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده"[23].

وإذا كان الوقوع في الخطأ في فهم معاني الآيات واردا، بل واقعا حتى في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وخلفائه كما رأينا، فكيف بالزمن الذي بعدهم؟ وإذا كان هذا عند المؤمنين الذين حسنت مقاصدهم فما بالك بالمغرضين المندسين من مسلمة أهل الكتاب والمنافقين؟ وما الظن بفهم المستشرقين ومن لف لفهم من بعض أهل المشرق والمغرب المعاصرين في الأقطار الإسلامية، الذين تصدوا لكتاب الله يريدون تحريف الكلم عن مواضعه وتضليل المؤمنين بدعوى ما أسموه "القراءة المعاصرة للقرآن" التي يريدون إحلالها محل علم التفسير؟ أو إخوانهم الذين ينادون بتجديد التفسير مع قصور في العلم وسوء في القصد يجعل من التجديد تبديدا!

إن هذا كله ليؤكد الحاجة إلى علم التفسير المنضبط في أصوله وقواعده، وإلى معرفة الشروط الأخلاقية والعلمية لمن يتصدى لكتاب الله بالبيان ويسمى بحق مفسرا لأن التفسير كما قال بعض العلماء هو الرواية عن الله.

وإذا كان العلماء قد وضعوا القواعد والضوابط العلمية للعلوم الشرعية، فهل يتركون علم التفسير ميدانا مباحا لعبث العابثين والحاجة إليه أمسُّ من الحاجة إلى غيره من المعارف والعلوم؟ وكما قال الإمام

السيوطي - رحمه الله -: "وقد أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات وأجل العلوم الثلاثة الشرعية.. لأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى... ولأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجل أو آجل مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى"[24].

وهكذا يتبين لنا مما سبق أن الاشتغال بالتفسير هو قيام بوظيفة النبي عليه الصلاة والسلام وتأس به في ديمومة تدبره للقرآن وصدور حركاته وسكناته عن فهم عميق لكلام الله، وتأس بأصحابه الذين كانوا يرون أن الاشتغال بفهم القرآن وتدبر معانيه هو أعظم ما يشتغل به حتى قال ابن مسعود "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن"[25]، أي "فلينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته"[26]، وقد كان الصحابة يرون أن من يقرأ القرآن ولا يحسن تفسيره كالأعرابي يهذّ الشعر هذًا، كما روي عن ابن عباس[27]، وهو فوق هذا طاعة لأمر القرآن نفسه، وتجاوب مع خطابه المطلق، وتسديد لأفهام قد تضل وقلوب قد تزيغ، من هنا وجب على علماء القرآن القيام على التفسير بضوابطه العلمية الصحيحة، ذلك أن إدراك المعاني المرادة لله لا تتم إلا بمعرفة تلك الضوابط وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

بل إن الاعتناء بالتفسير يتعدى مفهوم الواجب إلى الشرف، وشرف هذا العلم كما قال العلماء[28] من ثلاثة جهات: جهة الموضوع فموضوعه كلام الله وهو ينبوع الحكمة ومعدن الفضيلة فيه علم الأولين والآخرين ولا يخلق على كثرة الرد ولا يمل ولا تنقضي عجائبه، وجهة الغاية والغرض وغاية التفسير الاعتصام بحبل الله والسير على هداه وبلوغ السعادة الأبدية، وجهة مسيس الحاجة لأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو آجل مفتقر إلى المعارف الشرعية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى، أي علم التفسير. فالمفسر يطوف ويحل ويرتحل في جنة المعاني القرآنية يتدبر كلام الله ويطلع على ما فيه من أسرار في عالمي الغيب والشهادة، ويتعلم الأحكام والمواعظ والحكم وهو يحقق مراد الله من إنزال القرآن الذي هو التدبر والتمثل فيكتب في ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: 121)، وأي شرف أعظم من هذا الشرف... على أن يؤتى التفسير من بابه وهو العلم بأصوله والتمكن من علوم الآلة التي توصل إلى الفهم الصحيح أو تقرب منه على قدر الطاقة البشرية، وأين الحداثيون من هذا في ادعائهم لقراءة أو قراءات نعرف أولها ولا نعرف آخرها نظرا لكونها مبنية على الظن والتخرص والهوى والانفلات.

المطلب الثاني: علم التفسير في مرحلة التراجع

عندما نتأمل المنحى البياني لتطور علم التفسير وتعامل الأمة مع كتاب الله نجد أن هذا الكتاب العزيز كان منذ إشراقة الوحي على جبل النور وفي مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية محور الحياة كلها، فكانت الحياة تصطبغ بمعانيه في كافة الحقول والميادين العملية والمعرفية، ودائرة العناد والفساد كانت ضيقة، لذلك كان اعتناء الأجيال الأولى من الأمة الإسلامية بالقرآن كبيرا، فتناولوه بالدرس والبحث والتحليل والتفسير وكان لهم إماما وهاديا، وشمل ذلك جوانب عدة كالناحية اللغوية البيانية، والأحكام الفقهية، والأخبار التاريخية، والحقائق العقدية، والنواحي الأخلاقية، والآثار المروية وغير ذلك.

وبتطور العلوم والثقافات وتوسع دائرة التفسير وظهور المذاهب المختلفة والفرق المتعددة العقدية والسياسية، وارتكازها على التفسير بالرأي، اصطبغ التفسير بمعارف المفسرين واتجاهاتهم وكان الدافع لأكثرهم في ذلك "تعلقهم بهذا الكتاب الكريم الذي هو رسالة الله سبحانه وتعالى إليهم ونظرهم إليه باعتباره منهج الحياة التي لا يمكن أن تستقيم إلا به"[29]، مع إيمانهم بصلاحية القرآن لمخاطبة أهل كل مكان وزمان

بما يسد حاجة الناس فيهما، فتميز الخطاب القرآني بكونه المحور الجاذب، والوحي المقدس الذي يعطي المشروعية للأفكار والأعمال فما وافقه مقبول وما عارضه مرفوض، فأنشأ الخطاب القرآني حركية فردية وجماعية في الحياة الإسلامية ضمن سياق الحضارة التي عمرت الأرض، وبصرف النظر عما كان في هذا الإقبال على التماس المشروعية من القرآن الكريم من خير وصواب، وهو كثير، أو ما كان فيه من خطأ وشر، وزيغ وضلال أيضا، وهو الأقل، فإن الحضارة الإسلامية تميزت في عمومها بالطابع الإيجابي سواء في التقييم الداخلي أو فيما قدمته للإنسانية عموما في الجانبين المادي والمعنوي، وذلك نتيجة حياة معاني القرآن في نفوس الناس، ويمكننا القول إن شعاع هداية القرآن الكريم لم يخبُ ضياؤه وإن قلّت درجته في إنجاب الصالحين المصلحين جيلا إثر جيل، إلى أن ضعفت الأمة وتراجع عطاؤها وتفاعلها مع القرآن فهما وامتثالا فجاءت مرحلة الركود.

ومع بداية ركود الحضارة الإسلامية وانكماشها، أي: تقريبا بعد نهاية القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي، بدأ التفسير يكرر نفسه، ويتميز بالرتابة والشروح المبنية على مؤلفات السابقين، إذ "لم يستطع من جاء بعدهم أن يضيفوا شيئا جديدا إلى ذلك، بل اكتفوا بجمع أقوال المتقدمين وشرح ما قد يكون منها غامضا، ونقد ما قد يظهر عليه شيء من الضعف أو ترجيح رأي على آخر من الآراء الواردة في ذلك المجال.

واستقر التفسير على هذه الحال فترة لا بأس بها من الزمن وصفها العلماء بمرحلة الركود والجمود، حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فشملت هذه النهضة التفسير في جملة ما شملته من العلوم والمعارف"[30].

تميزت مرحلة الركود هذه بخلو التفسير شبه الكامل من وظيفته النفسية أي التفاته إلى دور القرآن في تغيير النفوس وتوطينها على الحقائق والفضائل، وفي وظيفته الاجتماعية في الحركة والإصلاح والعمران، فبدا التفسير كأنه أقوال وشروح لا تتعدى مصنفات أصحابها ولا تتجاوز النص إلى الهموم الواقعية والقضايا المعاصرة لأصحابها، فسكنت معاني القرآن صحائف الكتب وصحون المساجد، فيما بدا أن الأمة قد تعبت من التمزق الداخلي والاستبداد السياسي والغزو الخارجي، بدأت تتحول عن الطليعة في قيادة الإنسانية إلى الصفوف المتأخرة، مما مهد بعد ذلك للغزو الصليبي ثم الاستعمار الحديث لدار الإسلام، قبل أن يتحول استعمار الحقول إلى استعمار للعقول وغزو للفكر ومسخ للثقافة، وتسكن الطاقات والأفكار الخلاقة في العالم الإسلامي، وتركن نهائيا إلى الغريزة الفاقدة للروح والعقل، حيث تمت التضحية بتأثير القرآن على الفرد والجماعة، وأصبح التفسير فاقدا لمقاصده، غير ذي مضمون إصلاحي أو اجتماعي بعد أن كان هو مرجع الإصلاح وحارسه...[31].

تميزت تفاسير مرحلة الركود عموما بإقصاء هداية القرآن والاستعاضة عنها باستطرادات لغوية أو فقهية وكلامية حولت درس التفسير عن مساره ومقصده، وأضيف إلى ذلك استمرار عناصر الضعف في التفسير واستفحالها ومنها التوسع في رواية الواهيات وإيراد الإسرائيليات في تفصيلات لا ضرورة لها ولا فائدة لوجودها مع التفسير، كما حشيت بعض التفاسير بخرافات الباطنية والقصص الخيالية لاسيما في التفسير الصوفي وإشارات أرباب الطرق التي لا يسندها ضابط من قواعد العلم الدقيق غالبا من رواية ولا من دراية، وتسند نفسها إلى الوجد والذوق، كتفسيرهم ذبح بقرة بني إسرائيل بذبح شهوات النفس! وكتفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: 3)، بقولهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها

أوتادا من أوليائه، وسادة من عبيده فإليهم الملجأ وبهم النجاة... الخ[32]، كما استقر القول بالتقليد وفشت دعاوى النسخ بلا برهان نتيجة الجمود والتعصب المذهبي وغير ذلك.

كانت هذه الخصائص وغيرها سببا رئيسا دفع رواد النهضة وعلماء الإصلاح في العصر الحديث والفترة المعاصرة إلى العمل على **تجديد التفسير** ضمن محاولاتهم النهوض بالأمة عبر نهضة علمية شاملة، فحاولوا تخليص التفسير مما علق به من سلبيات وعملوا على "إلباس القرآن ثوبا جديدا رائعا رائقا ، يظهر حقيقته ويبرز للعيان روعته ويجلي أهدافه السامية ومراميه الدقيقة، وهدفوا أيضا إلى إبراز التوافق بين القرآن وبين ما وصل إليه العلم الحديث من حقائق ونظريات صحيحة"[33]، وقد كتب الله للتجديد في التفسير أن ينبعث من جديد، فكانت المرحلة الحديثة والمعاصرة في حياة الأمة من أكثر مراحل التاريخ وأوفرها في التأليف في التفسير وظهور مفسرين، ولا شك أن هذا التجديد الأصيل المنضبط بقواعد العلم هو أكبر رد عملي على من زعموا بأن التفسير تحجر لا يلائم طبيعة القرآن المتعالي على الزمان والمكان والإنسان، ومع هذا فقد حاول بعض الحداثيين استغلال موجة التجديد والجوس خلالها، لولا أن الأمة وعلماءها يعرفون من يريد ردها إلى الله من خلال الاهتمام بالتفسير ومن يريد صدها عنه.

المطلب الثالث: واقع علم التفسير بين التجديد والتبديد

كان من مقاصد المناهج التجديدية في التفسير إظهار سنن الإصلاح الاجتماعي، وإبراز هداية القرآن، وربط الأمة مجددا به ليقود حركة الحياة ويهيمن على علوم الكون فوجدنا الشيخ الطاهر بن عاشور مثلا يضع مقدمة كاملة في تفسيره بعنوان: **"فيما يحق أن يكون غرض المفسر"**، يلفت فيها الانتباه إلى مقاصد التفسير ويؤكد فيها بأن "المقصد الأعلى من إنزال القرآن هو صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"[34].

ولعل الإمام الأستاذ محمد عبده هو أول من نظَّر لهذه المرحلة بتفسيره الذي أتمه من بعده - إلى غاية سورة يوسف - تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، وجمعه إلى جانب تفسير شيخه في تفسير سماه المنار وقد حفل بالنظرات التجديدية وشرح السنن الاجتماعية.

وفي العقود الأخيرة دخلت معترك التفسير ودائرته مناهج لا علاقة لها بثقافة المسلمين وبمناهج علومهم، وكان قادتها هؤلاء الحداثيون وقد قصدوا بالتفسير أو القراءة المعاصرة التملص من النص القرآني لا الالتزام به، ويعبر أصحابها عن ذلك أحيانا بطريقة صريحة وأحيانا مبطنة خوفا كما يدعي بعضهم من العنف - المادي أو المعنوي- المسلط عليهم وعلى حرية التفكير التي يتميزون بها في زعمهم![35]، حتى سميت تفاسيرهم عند بعض الباحثين" بالتفاسير الإلحادية للقرآن"، وفيها "يسعى المفسر إلى هدم أسس وثوابت الدين من طريق خفي يتظاهر فيه بأنه يسعى إلى تفسير كلام الله وتبيينه للناس فيسلك سبلا شتى هدفها وغايتها تشكيك المسلمين في صحة ما يعتقدونه، فيذهب بعضهم إلى تفسير آيات الحدود على أنها للإباحة لا للوجوب!.. ويذهب آخرون إلى إنكار وجود الشيطان كحقيقة... ويذهب آخرون إلى إنكار وجود الجن... ويذهب آخرون إلى إنكار معجزات الأنبياء..."[36]، بل إن منهم من أنكر الدين نفسه وجعل الألوهية فكرة بشرية يضاهي بذلك قول الشيوعية الملحدة "ليس الله هو من خلق الإنسان ولكن الإنسان هو الذي خلق الله!"[37].

والجدير بالذكر والتنويه أن مقصود التجديد الحقيقي للتفسير الذي نقر به لا يدخل فيه هؤلاء الذين يعكرون عليه صفوه، ويحرفون كتاب الله عن مواضعه ويتخذون دين الله هزؤا ولعبا إذ المقصود بمصطلح التجديد في التفسير في عرف العلماء "التجديد الصحيح السليم المنضبط بالضوابط العلمية، الملتزم بالأسس

المنهجية... القائم على الإبداع والتحسين والجدة، ولا يعني الخروج على القواعد والضوابط والأسس، والانفلات والفوضى، والقول في القرآن وفق الهوى وتحريف معنى الآيات ودلالاتها، لتوافق مقررات الغربيين أو الشرقيين"[38].

ومن اللاّفت في العصر الحديث أن تطور تفسير القرآن من خلال عمل المصلحين شمل الموضوع والمنهج معا، وقد دعت إلى ذلك طبيعة العصر وتوسع الثقافة والعلوم والمعارف الإنسانية من جهة، وما يعرضه هذا العصر على مفكري الإسلام وعلمائه من تحديات من جهة أخرى، سواء على المستوى الخارجي، كتحديات الحضارة الغربية بمفاهيمها عن الله والكون والإنسان، والتي تتطلب تجلية موقف القرآن الكريم منها، وتقديم البدائل الفكرية والحضارية لها حتى لا يضل الناس ولا تضيع معالم الكتاب، أو على المستوى الداخلي، لأجل بناء نسق معرفي ورؤية حضارية للأمة الإسلامية مبنية على مبادئ الكتاب العزيز، حتى لا تأخذ بعضه وتترك بعضه، وحتى يكون القرآن مرجعا شاملا وجامعا لكل العلوم الشرعية منها والكونية، ولمجابهة العبث بمعاني كتاب الله باسم التجديد[39]، الذي يمارسه الحداثيون أو المستلبون والمؤدلجون الجدد.

وإذا كنا قد سردنا طرفا من واقع تجدد التفسير وصفا، فما هي الدعائم الشرعية التي تقوم عليها مشروعية التجديد في التفسير وعلوم القرآن عموما؟

بصورة أخرى، هل التجديد ممكن في التفسير وفي استمداداته وأصوله من علوم القرآن؟ وهل هو جائز ومشروع يقع تحت ما هو محل للاجتهاد والبحث والنظر؟ أم إن التجديد في التفسير ومناهجه، وفي علوم القرآن هو تجديد في ثوابت الدين وأصوله وبالتالي فهو بدعة حديثة أو حداثية؟ والكلام من ثمّ عن مجددين في التفسير في صورة أفراد أو مدارس ومناهج حديثة في التفسير وعلوم القرآن ومنها على سبيل المثال، منهجية التفسير الموضوعي أو التفسير الهدائي أو التفسير المقاصدي أو غيرها... يكون من قبيل ما بني على باطل فهو باطل؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه في المطلب التالي.

المطلب الرابع: مشروعية التجديد في التفسير وعلوم القرآن

من أجل معرفة حقيقة الجواب نظرنا إلى ما انتهت إليه مدارس التفسير من جهة مصادره، فوجدناها قد استقرت على مدرستين أساسيتين: **مدرسة الأثر، مدرسة الرأي**، وإن لم تخل تفاسير الأثر من الرأي وتفاسير الرأي من الأثر، فهذا التقسيم هو على أساس الغالب ليس إلا.

من هنا فإن التفسير المقبول المعتبر عند علماء القرآن هو إما تفسير يعتمد النقل الصحيح من القرآن نفسه، أو من السنة مرفوعها وموقوفها، ويستأنس بتفاسير التابعين وتابعيهم بإحسان، وهو **التفسير بالأثر**. وقد يعبر عنها أحيانا **بأحسن طرق التفسير** مثلما ورد في مقدمة ابن تيمية الذي رتبها على هذا النحو: (تفسير القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالسنة، تفسير القرآن بأقوال الصحابة، تفسير القرآن بأقوال التابعين).

وإما نظر صحيح على أساس العلم باللغة وعلوم الشريعة، والعلم بثوابت الدين ومواطن الإجماع، وعلوم العقل، وعلوم الكون، مما صح وثبت عند أهل الاختصاص، ومما لا يعارض النقل الثابت الصحيح، وهو **التفسير بالرأي** العلمي والاجتهادي المقبول المنضبط، ويمكن لتفسير ما من التفاسير أن يجمع بين الوصفين: النقل الثابت، والرأي العلمي السديد.

"أما ما عدا ذلك من روايات غير صحيحة، أو رأي مذموم مستمد من الهوى فليس من مصادر التفسير، وإنما هي أباطيل ترد على أصحابها"[40]، فلا عبرة بالتخرصات والأوهام والقول في كلام الله بلا علم، ولا اعتبار لغلو الطوائف في التأويل الباطل ، والانتصار للمقررات السابقة على البحث وحمل كلام

الله عليها تعصبا، فالمنهج الصحيح لتناول كلام الله بالإيضاح والبيان يكون على سبيل الافتقار إليه كدليل يهتدى به، لا على سبيل استظهاره ليبرهن به المفسر على مقررات سابقة لديه فمن المقرر أن الحكم تابع للدليل وليس العكس[41]، فالقرآن وهو عمدة الأدلة متبوع لا تابع وإمام لا مأموم.

ولا يُعترض على مشروعية التفسير بالرأي بالقول ببطلانه مطلقا لورود الروايات بذلك، فليس الأمر هكذا، إذ ما ذم من الرأي في التفسير قُصد به عند أهل التحقيق التفسير بالهوى والتشهي كما هو تفسير الطوائف والفرق، ويتوافق انطباقه على القراءات الحداثية للقرآن الكريم كونها متفلتة لا يضبطها ميزان، ومثلها كل قول على الله بغير علم، ولا يشمل ذلك الاجتهاد المبني على قواعد العلم.

1- التجديد في التفسير بالأثر: التفسير بالأثر - وهو الأضيق مجالا- يمكن الاجتهاد فيه والتجديد من زوايا عديدة: منها تنقية النقل من الضعيف والموضوع ومن الإسرائيليات وأخبار القصاص، ومنها أن الصحيح فيه مجال للاجتهاد في دلالته وفهمه وتوجيهه إن لم يكن قطعي الدلالة بما لا يند عن قواعد التفسير وكليات الشريعة، فليس كل ما صحت روايته عن رسول الله ﷺ في التفسير قطعي في دلالته مستقص لجميع جوانب المعنى في بيانه، من هنا فالاجتهاد وارد في الفهم والاستنباط وتحديد الدلالة.

فضلا عن أن النبي ﷺ لم يفسر القرآن كله، ولا فسر أكثره إذا كان القصد هو التفسير المباشر للآيات، وإذا ظهر أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يفسر "إلا آيات معدودات علمه إياهن جبريل كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها"[42]، فهذا يفتح المجال واسعا للقول بمشروعية الاجتهاد والتجديد في التفسير، بخلاف ما فهمه بعضهم ممن وضعوا النصوص موضع التضييق على الاجتهاد، والحد من مجال التفسير، إذ إنه عليه الصلاة والسلام رسم المنهج وبين المشروعية وترك المجال واسعا لإعمال الاجتهاد الراشد المنضبط والتوسع فيه.

2- التجديد في التفسير بالرأي: إذا كان التجديد ممكنا في التفسير بالأثر، فالقول بإمكانه في التفسير بالرأي أولى وأرحب، إذ يفتح الله فيه على من يشاء من عباده بحسب رسوخ قدم صاحبه في العلم، وصدقه في الإقبال على الله، كما قال الإمام الغزالي في الإحياء: "إن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه"[43].

وما رواه البخاري في صحيحه يؤكد هذا المعنى فعن أبي جحيفة قال: قلت لعلي هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم، وما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر"[44].

ولا ينبغي أن يحجر الإنسان على عقله في فهم القرآن والتدبر فيه، فذلك يخالف ما أمر القرآن نفسه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82)، وما معنى التدبر إن لم يكن تأملا في المعنى، وقراءة بوعي، وتذوقا لأسلوب القرآن وتفاعلا معه؟! وكل ذلك لأجل الاهتداء بالقرآن تعلما وتعليما، وتمثلا ودعوة وتبليغا.

وفي التعبير عن ذلك يقول حجة الإسلام الغزالي واصفا موانع الفهم "أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي [المذموم] وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوء مقعده من النار، فهذا أيضا من الحجب العظيمة"[45].

وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم: 42)، هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. فقيل من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قال من علمه، يريد نفسه[46].

وذكر الإمام فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19)، وقد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآيات فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة ، وذلك لا يقوله إلا مقلد خُلفٌ"[47].

وأضيف هنا أن بعض الباحثين حمل النهي عن التفسير بالرأي على سد الذريعة حتى لا يفتح باب الانتصار للرأي واستعمال القرآن وسيلة لذلك فقال في التعليق على تحريم شيخ الإسلام ابن تيمية التفسير بالرأي: "فلعل قول ابن تيمية بتحريم التفسير بالرأي إنما يعود لمعاصرته للباطنية ومجادلتهم"[48]، يريد أنه شدد في المنع سدا للذريعة، فذلك يفهم ضمن هذا السياق التاريخي لا خارجه، ويستفاد منه منع أدعياء التجديد الذين يقولون في معاني القرآن بمحض الهوى والتشهي، زاعمين عدم حاجتهم للمفسرين وبالنتيجة فإن التجديد في التفسير عمل مشروع يضع الاجتهاد في محله، فهل الأمر كذلك بالنسبة لعلوم القرآن كافة كذلك؟

3- التجديد في علوم القرآن وأصول التفسير: بخصوص علوم القرآن التي يستمد منها التفسير عدته المنهجية، فلعل إدراك العلماء القدامى لأهمية الاجتهاد فيها جعلهم يرون أنها مجال خصب مفتوح للنظر والبحث، على الرغم مما عرف عنهم من التضييق في مسائل الاجتهاد في كثير من العلوم الشرعية.

بل يرى الإمام الزركشي (ت724هـ) رحمه الله أن علوم القرآن قد تأخر ظهورها عند القدامى ففتح الله عليه فيها، وبعد أن جمع أكثر من أربعين نوعا وصنّف فيها كتابا قيما قال: "واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه، لاستفرغ عمره، ثم لم يحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله"[49]، فانظر كيف جعل علوم القرآن بحرا لا آخر له!

وبعد قرن من الزمان تقريبا كتب الإمام السيوطي (ت911هـ) رحمه الله في كتابه: الإتقان في علوم القرآن، ما يؤكد كلام الإمام الزركشي من ندرة التأليف في علوم القرآن على أهميتها فقال: "لقد كنت في زمن الطلب أتعجب من المتقدمين، إذ لم يدونوا كتابا في أنواع علوم القرآن ، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث"[50]، وزاد السيوطي على ما ذكره صاحب البرهان من أنواع علوم القرآن فأوصلها إلى ثمانين، أما في كتابه: **"التحبير في علم التفسير"** فقد ذكر أنه صنفه في اثنين ومائة نوع من علوم القرآن وأنه استخرج أنواعا لم يسبق إليها وزاد فيه تتمات لم يُستَوف الكلام عنها...[51]، وفي العصر الحديث ألف الشيخ عبد العظيم الزرقاني كتابا قيما في علوم القرآن جدد فيه الصياغة وأحسن فيه العرض بما يلائم لغة العصر سماه مناهل العرفان في علوم القرآن وصرح في بعض مباحثه بأنها جديدة[52]، كما ذكر بأن علوم القرآن وقف نموها بعد عصر الإمام السيوطي وبدأت تنتعش في سنين القرن الحالي من جديد[53].

والنتيجة بالنسبة لعلوم القرآن أيضا، أن العلماء القدامى والمحدثين جميعا، لم يغلقوا باب الاجتهاد في علوم القرآن، وهي العلوم التي تقدم المدد لعلم التفسير كما ذكرنا، ناهيك عن أن التفاسير لم ينقطع التأليف فيها منذ عصر التابعين، وكلهم يجتهد ويستدرك ويزيد دونما حرج.

بل منهم من تراءى له علم جديد لم يكتب فيه من قبل وهم بالكتابة فيه ثم توقف كما يتبين من قول الإمام ابن العربي: "إن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض - حتى تكون كالكلمة الواحدة[54] متسقة المعاني

منتظمة - علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه"[55]، والظاهر أن هذا العالم هو الإمام أبو بكر النيسابوري الذي عرف بحديثه في علم المناسبة، ولقول أبي الحسن الشهرباني إنه "أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره[56].

فعلم التفسير إذن، علم مفتوح للنظر والاجتهاد، وهو بما يمثله من بيان لهداية الله مما تحتاج إليه الأمة أمس الحاجة في كل عصر، وبذلك يكون متوائما مع طبيعة القرآن الذي لا يخلق على كثرة الرد، وليس كما زعم عبد المجيد الشرفي وغيره. ولا غرابة إذن فيما درج عليه العلماء المتأخرون من التأليف في التفسير والاجتهاد في علوم القرآن، ولم تخل اجتهاداتهم من جديد نافع، فظهرت تفاسير مفيدة في العصر الحديث نذكر منها على سبيل التمثيل: محاسن التأويل للقاسمي، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، والأساس في التفسير لسعيد حوى، وتفسير المراغي للشيخ مصطفى المراغي، وتفسير الأجزاء العشرة للإمام الأكبر محمود شلتوت، وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي، وتفسير السعدي وغيرها.

كما استدعيت إلى ميدان البحث والمناقشة العلمية عدة قضايا ومباحث في علوم القرآن كموضوع الناسخ والمنسوخ، وأهمية السياق في التفسير، وعرضت موضوعات لم تكن مطروقة من قبل كالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم أو في السورة القرآنية الواحدة[57].

الخاتمة:

تتلخص أهم نتائج البحث فيما يأتي:

1- ادعاءات الحداثيين ومن قبلهم المستشرقين انتفاء الحاجة إلى التفسير والمفسرين بدعوى أن القرآن الكريم بيّن بنفسه هي دعوى كاذبة يراد منها فتح مجال الفهم والتفسير للأهواء المختلفة.

2- التفسير علم منضبط في المفهوم والأصول والقواعد، وهو كسائر العلوم الإسلامية، يمكن لمن أتقن استمداداته أن يجتهد فيه، وليس مجرد خواطر وتكهنات، ومن ثمة يتهاوى القول بأن المفسرين يحجرون على عقول الناس باجتهاداتهم، بل الصواب القول إنهم يقطعون الطريق على كل دجال يتكلم في علم التفسير بلا علم.

3- لا مانع من التجديد في علوم القرآن وأصول التفسير، إذا كان ذلك التجديد فروعا باسقة مبنية على الأصول الثابتة، وليس التبديل والتحريف الذي يأتي على الأصول من القواعد تجديدا بحال من الأحوال.

4- علم التفسير كغيره من العلوم يمر بفترات من الازدهار والعمق والإثمار، ويمر بفترات ركود وتراجع، وهو ثمرة فهم وجهد يقوم به علماء الأمة في مرحلة من مراحل التاريخ، فلا ازدهاره يعد ازدهارا للقرآن، ولا تراجعه يعد تراجعا للقرآن، فالقرآن كلام الله السامي الذي لا يقدر البشر على النيل منه بسوء فهمهم، فإذا أحسنوا الفهم والتطبيق فذلك لهم، وإن أساؤوا جنوا على أنفسهم.

المصادر

1- القرآن الكريم.
2- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الحديث القاهرة، 1425هـ - 2004م.
3- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفجر للتراث،1427هـ، 2006م.
4- البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف التوحيدي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
5- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، 2006م
6- التحبير في علم التفسير، الإمام جلال الدين السيوطي، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1986م.
7- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م.

8- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م
9- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، 1979م.
10- التفسير والتأويل في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن الطبعة الأولى، 1416هـ، 1996م.
11- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي ، مكتبة مصعب بن عمير الإسلامية 2004م
12- جامع صحيح البخاري طبعة المكنز الإسلامي مصر، القاهرة.
13- دراسات في التفسير وعلومه، جلال الدين العلوش، دمشق، اليمامة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ،1426هـ-2006م.
14- الروض الناظر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر، بدر محمد باقر، الكويت، مبرة الآل والأصحاب، الطبعة الثانية، 2007م.
15- سنن الترمذي، طبعة جمعية المكنز الإسلامي، مصر، القاهرة.
16- سنن أبي داود، طبعة المكنز الإسلامي مصر، القاهرة.
17- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، 1987م.
18- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسن أحمد ابن فارس، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار المعارف، بيروت، لبنان.
19- في قراءة النص الديني، عبد المجيد الشرفي وآخرون، الدر التونسية للنشر والتوزيع، 1991م.
20- قراءة في النص الديني، بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006م
21- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور الأهالي للطباعة والنشر، دمشق.
22- المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية، 1411هـ-1991.
23- مسند الإمام أحمد بن حنبل، طبعة المكنز الإسلامي مصر، القاهرة.
24- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، الإمام جلال الدين السيوطي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة .
25- مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الثالثة.
26- ملامح التنوير في مناهج التفسير، محمود عزب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.
27- معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، عبد القادر محمد الحسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، 2007م.
28- المعجم الكبير، الإمام الطبراني، طبعة المكنز الإسلامي مصر، القاهرة.
29- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2002م.
30- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1997.
31- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم القاهرة، الطبعة العاشرة، 2008م.
32- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت.
33- الوحدة الموضوعية في القرآن، محمد محمود حجازي، مكتبة دار التفسير، الزقازيق، الطبعة الثانية، 2004م.

الهوامش:

[1]- في قراءة النص الديني، عبد المجيد الشرفي وآخرون، الدر التونسية للنشر والتوزيع، 1991م، ص94

[2]- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسن أحمد ابن فارس، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار المعارف، بيروت، لبنان، ص 197.

[3]- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطبعة السعادة، 1328هـ، ج1، ص5.

[4]- البرهان، الزركشي، ص 22.

[5]- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفجر للتراث، 2006م، ج2، ص 274.

[6]- التفسير والتأويل في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، ط 11416هـ/1996م، ص27.
[7]- راجع: مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، ص6.
[8]- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربين بيروت لبنان، ط4، 2002م، ج2، ص6.
[9]- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م، ج1، ص11.
[10]- أنظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ص10.
[11]- الروض الناضر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر، بدر محمد باقر، الكويت، مبرة الآل والأصحاب، ط2، 2007، ص36.
[12]- البرهان، الزركشي، ص 17.
[13]- سنن الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، المقدمة، باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة، ج1، ص 62.
[14]- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، الإمام جلال الدين السيوطي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط3، ص 59.
[15]- شرح أصول التفسير لابن تيمية، محمد بن صالح العثيمين، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، ط1، 1426ه-2006م، ص100.
[16]- الآية 5 من سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.
[17]- انظر تفسير الطبري، ج1، ص 82-83.
[18]- المصدر نفسه، ج1، ص81.
[19]- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1997م، ج2، ص397.
[20]- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله وكلوا واشربوا... الآية، ج4، ص 1240.
[21]- المصدر نفسه الموضع نفسه.
[22]- معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، عبد القادر محمد الحسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ط1، 2007م، ص190.
[23]- رواه أحمد في مسنده برقم 1، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده، ورواه أبو داود في الملاحم 4338، والترمذي في التفسير 3095 وقال حسن صحيح وابن ماجه في الفتن 4005.
[24]- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج2 ص: 464، 465
[25]- المعجم الكبير، الطبراني، رقم 8664، شعب الإيمان، البيهقي، رقم 1960.
[26]- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مادة (ثور).
[27]- الإتقان، السيوطي، ج2، ص494.
[28]- أنظر الإتقان، السيوطي، ج2، ص494.
[29]- دراسات في التفسير وعلومه، جلال الدين العلوش، دمشق، اليمامة للطباعة والنشر، ط1، 1426هـ - 2006م، ص 68.
[30]- المرجع السابق، ص68.
[31]- راجع في مسار تدهور الحضارة والاختفاء التدريجي لأثر القرآن فيها، شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط4، 1987م، ص 52 وما بعدها، وص 149 وما بعدها.
[32]- أنظر مزيدا من النماذج: التفسير والمفسرون، ج2، ص363 وما بعدها.
[33]- المرجع السابق، ص69.
[34]- التحرير والتنوير، المقدمة الرابعة، ص38.
[35]- أنظر مثلا: ملامح التنوير في مناهج التفسير، محمود عزب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2006م، ص52، يقول منتصرا لتفاسير الفلاسفة والمعتزلة والشيعة والصوفية واصفا إياهم بأهل الرأي مشبها من يدخلون المناهج الغربية في التفسير بهم وهو واحد منهم "... إن هذا النوع من الاتهامات الموجهة مسبقا إلى كل من تسول له نفسه أن يفكر على الورق وأن يستخدم منهجا عقلانيا في التفسير أو غيره من علوم الدين الذي يحبذ العقل ويدعو إليه، ما زال حيا يمارس بل ما أشد ما يمارس الآن وتلك مشكلة من أعقد المشاكل التي تواجه مفكري اليوم".
[36]- دراسات في التفسير وعلومه، جلال الدين العلوش، ص70.

[37]- نقل الدكتور محمد عمارة عن أحدهم – وهو حسن حنفي - قوله: الدين إما دين وحي أو دين الطبيعة، دين الوحي هو الذي يأتي به الأنبياء، والدين الطبيعي هو الذي يكتشفه الإنسان بنفسه... وإن ما تصوره القدماء أنه وحي الله، أعيد اكتشافه على أنه من وضع الإنسان وقد أدى ذلك إلى تغيير مفهوم الوحي والنبوة وقد انتهى النقاد إلى أن العقيدة لم تخرج من النص، بل إن النص خرج من العقيدة. آمن الناس أولا ثم دونوا إيمانهم بعد ذلك في نصوص اعتبرت مصدر الإيمان ومنشأه" [!!!]، أنظر: قراءة النص الديني، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2006، ص76.

[38]- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 25.

[39]- أنظر مثلا: ما كتبه محمد شحرور في كتابه: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، جاء فيه بالغرائب التي تدل على جهل هائل باللغة والشريعة، وسوء قصد لا يخفى على أي لبيب، ففي الوقت الذي يدعي فيه التجديد، يشرح الألفاظ اللغوية على ما يهوى ويشتهي ويستنبط من الأحكام ما يدل على جهله المطبق بعلوم الشريعة، مثال ذلك قوله تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن). يذهب إلى أنها تغطية الشقوق التي هي العورة المغلظة[هكذا] وليس الخمار هو خمار الرأس وإنما هو أي غطاء؟؟ ومنه فشعر المرأة ورجلاها من الزينة الظاهرة التي يجوز أن يراها كل الناس ـ كما يقول ـ أما المخفية التي تبديها لمحارمها، فيقول ـ وأستغفر الله وأنا أنقل بالحرف ما يقول ـ "قد يقول البعض هذا يعني بأن المرأة المؤمنة [هكذا] يحق لها أن تظهر عارية تماما أمام هؤلاء المذكورين أعلاه [يقصد محارمها] في نص الآية. أقول نعم يجوز إن حصل ذلك عرضا، فإن تحرجوا من ذلك فهو من باب العيب والحياء والعرف وليس من باب الحرام والحلال" ص606-607. لم يكن ينقص هؤلاء إلا نشر الإباحية باسم التفسير والأمر في غنى عن التعليق.

[40]- المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص16.

[41]- الموافقات، الشاطبي، ج3، ص70.

[42]- أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (100/1)، وأخرجه ابن داود في مسند عائشة رقم 43.

[43]- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الحديث القاهرة، 1425هـ-2004م، ج1، ص 380

[44]- رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم، ج1، ص30.

[45]- إحياء علوم الدين، ص 383. وانظر: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، عبد الغفار عبد الرحيم، مطبعة الحلبي بالقاهرة، ص141

[46]- المرجع السابق، الموضع نفسه.

[47]- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997، وراجع: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، مرجع السابق، ص141

[48]- المرجع نفسه، ص145

[49]- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ج1، ص12.

[50]- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج1، ص3.

[51]- أنظر التحبير في علم التفسير، السيوطي، ص 29-36.

[52]- مناهل العرفان، ج1، ص 54.

[53]- المرجع نفسه، ص36.

[54]- ربما كان الأدق أن يقال كالجملة الواحدة لأن أخذ معاني الخطاب من سياق الكلام المركب في لغة العرب وهو الجملة أولى من أخذه من اللفظ المفرد وهي الكلمة. أنظر الموافقات، الشاطبي، ج2، ص 396.

[55]- ذكره الإمام بدر الدين الزركشي نقلا عن الإمام أبي بكر ابن العربي في كتابه "سراج المريدين"، انظر: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص37.

[56]- المصدر السابق، ج1، ص37، وانظر: الوحدة الموضوعية في القرآن، محمد محمود حجازي، مكتبة دار التفسير، الزقازيق، ط2، 2004، ص19.

[57]- من العلماء الذين اهتموا بهذه الموضوعات الجديدة عبد الله دراز في كتابه المتميز النبأ العظيم ومحمد محمود حجازي في الدراسة السابقة ومحمد رشيد رضا في تفسير المنار والشيخ محمد أحمد السقا الغزالي في نظرات في القرآن، ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن... غيرهم.